ما بعد الموت

وقفنا على حديث في هذا الموضوع مع قس فاضل رأيناهُ غاية في الاجادة فاقتطفنا منهُ ما يأتي شارحين بعض الاعلام المذكورة فيهِ

قال الكاتب رأيت مركبة محمَّلة حملاً ثقيلاً انقلبت فوق رجل فحسبت انها قضت عليهِ . ولما رُفعت عنهُ وُجد حيًّا سليماً لانهُ اتفق ان كان الى جانبهِ حجر كبير استندت المركبة عليهِ فبقيت مرتفعة عن الرجل نحو اصبع .فقلت لهُ اخبرني بماذا كنت تفكر حينما رأيت المركبة فوقك ويحتمل في كل لحظة ان ينكسر هذا الحجر او يزيح من مكانهِ فتخطف انفاسك.هل خفت وهل خطر لك انك ستقف بعد قليل امام الله وتُسأل عن اعمالك

فقال كلاَّ لم يخطر ببالي شيء من ذلك ولا انا ممن تخطر ببالهم هذه المواضيع بل كنت اقول في نفسي لا بد من ان تصل المركبة اليَّ بعد قليل واموت ميتة كلب ولا حيلة في اليد

ورأيتُ مرة اخرى كهلاً في احد المستشفيات مصاباً بذات الرئة والطبيب والممرضة واقفان الى جانب سريرهِ وهما ينتظران من لحظة الى اخرى ان يلفظ النفس الاخير لكن الخطر زال وشفي . فكلمتهُ في هذا الموضوع وقلت لهُ ان الطبيب قطع الرجاء منك واظنك عرفت ذلك فكيف شعرت وانت على حافة الابدية. فقال لم اشعر الاَّ بانني كنت في اشد التعب واتمنى ان انام واستريح .فقلت لهُ اكان الموت والحياة سيين عندك فقال كنت افضل الموت لينقذني من التعب

فاتيت القس فُزدِك وقصصت عليهِ هاتين القصتين وما سمعتهُ من الرجلين وقلت لهُ ان ذلك مخالف لما اسمعهُ احياناً في الوعظ من اهتمام المحتضرين بما وراء الموت

فتبسم وقال ان الناس قلما يهتمون بما وراء الموت وهم في هذه الحالة والغالب انهم يقابلونهُ كمن تعب في السفر وهو في حاجة الى الراحة . فالرجل الذي يسير سيراً شاقاً ثم يصل الى فندق لا يهتم بزينة الفندق بل بمكان يجلس فيهِ ويستريح. واذا اردت ان ترى رجلاً يهتم بما وراء الموت فلا تفتش عنهُ بين الضعفاء الذي

انهكهم المرض بل بين الاقوياء الذين يعملون الاعمال العظيمة فان الانسان يعمل كأنهُ خالد ويودُّ الخلود حينما يكون في معظم قوتهِ وراحتهِ لا حينما يكون ضعيفاً تعباً. قال تندل(١) «لقد رأيت مدى سنين كثيرة ان هذا المذهب (اي المذهب المادي) لا يتولاني حينما اكون على اتم النشاط وجلاء الفكر لانهُ يضمحل ويتلاشى امام الافكار السليمة ولا يحل اللغز الذي نحن فيهِ »

وفراش الموت ليس بالمحك الذي يظهر عندهُ الاعتقاد بالخلود وانما المحك في البيت والمكتب والمعمل حيث يتفانى الناس في طلب الاغراض وهم يحسبون انهم خالدة. اناس مثل هؤلاء يقفون في ميدان الحياة ويتساءلون هل هذا المترك حرب حقيقية او لعب ولهو وهل وراءهُ شيء دائم او هو ظل زائل

اليك مثلين وقعا لي . اتاني ذات يوم شاب جلس في هذا الكرسي الذي انت جالس فيهِ وكان في حيرة شديدة لانهُ كان واثقاً انهُ اذا عمل عملاً لا يسلم بهِ ضميره ربح ربحاً كبيراً .فقبض على ذراعي الكرسي بيديهِ وقال «لو كنت اعلم حق العلم ان لا حياة بعد الموت لعملت هذا العمل وخرجت بالربح الجزيل » . ومفاد ذلك ان اخلاقهُ كانت تنهاهُ عن العمل الذي اشار اليهِ ولو داخلهُ اقل ريب في انهُ خالد لما تأخر لحظة عن عملهِ . خلقٌ مثل هذا لا يكون في نفس غير معدة للخلود كما ان حجارة الماس لا ترصع بها ثياب الورق

والمثل الثاني رجل من ارباب الاعمال الكبيرة في هذه المدينة دُفنت ابنتهُ في النهار واتاني في المساء وقال لي اليك عن عبارات التعزية المألوفة فانها لا تعزي ولكن ان كنتَ تعرف شيئاً حقيقياً عما وراء الموت فبالله عليك اخبرني بهِ لانني في اشد الحاجة اليهِ الآن

فهذان الرجلان من نوع الرجال الذين يهتمون بالخلود ويشتاقون اليهِ وهم في معترك الحياة لا لان قواهم نهكت فيودون الخلاص منها بل لان نفوسهم المملوءة قوةً تطمح الى معرفة ما وراء القبر وتدفعهم الى ذلك

فقلت لهُ ما كان جوابك لهذا الرجل فصمت هنيهة ثم قال اتتذكر الجدال الذي جرى بين نيوليون وجماعة من العلماء فانهُ اصغى اليهم ثم نظر الى السماء وقال لهم

(١) تندل Tyndall عالم طبيعي من اكبر الباحثين في علم الطبيعيات توفي سنة ١٨٩٣

« ان كل ما قلتموهُ حسن ولكن قولوا لي من صنع كل هذه النجوم » . ونحن يجب ان يبتدىء بحثنا عن الخلود بسؤال مثل هذا . لا بدَّ من قوة خلقت هذا العالم فهل يعقل ان هذه القوة الخالقة غير عاقلة وغير مدركة . كيفما وجّه العالِم آلاتهِ العصرية من انواع المكرسكوب والتلسكوب رأى بها أدلة قاطعة على وجود الانتظام في الكائنات حتى لقد قال هكسلي (٢) وهو من اللاادريين (٣) اني اسلم بان نظام الكون يدل على عقل نظَّمهُ وان هذا التنظيم قد ساد الكون في كل العصور . ولا اكتفي بالتسليم بهذين الامرين بل اراني ميالاً الى القول بانهما من اهم الحقائق»

فالكون شيء حقيقي منتظم خاضع لنواميس يجري بموجبها . وعناصر ابعد نجم منا مثل عناصر اقرب نجم ومثل عناصر الشمس والارض . ونواميس حركات الكون معروفة جارية على سنن واحد حتى لقد عرف بعض العلماء مما رآهُ من التأثير في حركات بعض السيارات ان وراءها سياراً (٤) غير منظور يفعل بها وعرف مقدارهُ وموقعهُ من تأثيره فيها قبلما رآهُ احد فرُصد في المكان الذي عينهُ فوجد فيهِ

وعليهِ فالعالم منتظم انتظاماً يدل على ان عقلا سامياً نظمهُ . وحركاتهُ جارية حسب قوانين ثابتة لا مجازفة فيها . «قال تشارلس دارون (٥) اننا اذا التفتنا الى العالم كلهِ أبى العقل ان يسلم بانهُ وجد صدفةً »

اذا القيت حروف الطبع من غير ترتيب حتى يجتمع بعضها مع بعض كيفما اتفق فلا يمكن ان يطبع عنها عبارات مقروءة ذات معنى . ولا ترتب ترتيباً تطبع عنهُ جمل ذات معنى الاَّ اذا رتبها انسان عاقل . فوجود المعنى في ترتيبها يدل على وجود العقل في مرتبها . وقد بحث رجال العلم في الكون فرأوا ان ليس فيهِ شيء

(٢) هكسلي Huxley عالم طبيعي اشهر من ان يوصف وهو اكبر نصير لداروين توفي سنة ١٨٩٥

(٣) اللا ادرية ترجمة حرفية لكلمة agnosticism التي وضعها الاستاذ هكسلي سنة ١٨٦٩ للدلالة على مذهب الفلاسفة الذين يقولون ان ما لا نعرف وجوده بطريقة علمية لا يحق لنا اثباته ولا ان ننفيه

(٤) هو السيار نبتون الذي اثبت وجوده جون ادمس الانكليزي ولفريه الفلكي الفرنسوي في وقت واحد تقريباً قبل ان يراه احد

(٥) داروين Charles Darwin اشهر من ان يذكر وهو صاحب المذهب المنسوب اليه اي تسلسل انواع الاحياء بعضها من بعض بالاسباب الطبيعية كتنازع البقاء وبقاء الاصلح

خالٍ من المعنى فالذي رتب الكون هذا الترتيب كائن عاقل. وعليهِ فوراء هذا الكون المادي كائن عاقل كونهُ ونظمهُ

واذا بحثنا في طبائع الكائنات رأينا انها تتدرج من البسيط الى المركّب ومن الادنى الى الاعلى. من غبار تتألف منهُ النجوم الى الارض الكثيرة التركيب. ومن الجماد الى النبات والحيوان ومن ادنى طوائف الحيوان الى الانسان العاقل ارقاها. فالكون متجه في نظامهِ الارتقائي الى تكوين العقل او النفس فاذا كان العقل او النفس هو الغرض الاسمى الذي ترتقي اليهِ المخلوقات فهل يعقل ان الخالق يصل الى هذه الدرجة السامية في ترقية مخلوقاتهِ ومتى وصل اليها يلاشيها. ايُعقل ان الجهاد الذي جاهدتهُ المخلوقات مدى الملايين الكثيرة من السنين يذهب هباء منثوراً كأن خالقها يلهو بها ومتى وصلت الى اعظم غاية يمكن الوصول اليها في هذه الدنيا يطرحها من يدهِ كأنها من سقط المتاع. فكّر داروين في ذلك فقال « اي عاقل يستطيع ان يسلّم بان الانسان وكل الحيوانات التي فيها شيء من الشعور معرّضة للملاشاة بعد ان ارتقت هذا الارتقاء البطيء المستمر »

يقال ان في بلاد الهند طائفة من الفقراء[٦] يجلس الواحد منهم امام بركة من الماء والى جانبهِ مساحيق ناعمة من الغبار الملوّن فيرمي بعضاً منهُ على وجه الماء ويتفنن في رميهِ حتى ترتسم منهُ صور اشخاص ثم تعبث الريح بالماء فتزول الصور منهُ. فهل يعقل ان الخالق يجري هذا المجرى في عملهِ يأخذ حفنة من التراب ويصنع منها مشاعير الرجال ثم يلاشيهم. من يستطيع ان يتصور إمكان ذلك؟ من يستطيع ان ينسب الى الخالق عملاً يجلّ هو نفسهُ عنهُ ؟ وكلما قوي العقل وزادت قوة الاستدلال فيهِ نفر من القول بتلاشي النفوس فاذا سلمنا بما يقررهُ العلم وهو ان نظام الكون يدل على وجود العقل في تنظيمهِ اضطررنا ان نسلم بوجود الخالق المنظّم. واذا سلمنا بوجودهِ تعذر علينا ان نعتقد بفناء اسمى مخلوقاتهِ اي ذاتية الانسان او عقل الانسان

فقلت ولكننا نرى العقل يضعف رويداً رويداً ويتلاشى امام اعيننا فالشهير امرسن[٧] اعتراهُ الخرف قبل موتهِ حتى نسي اسمهُ وجعل يضحك ويلتغ كالطفل

(٦) الفقراء طائفة من الدراويش في بلاد الهند

(٧) أمرسن Emerson اديب اميركي مشهور بشعره ونثره وآرائه الفلسفية توفي ١٨٩٢

بل كالابد وكل الذين كانوا حولهُ رأوا عينيهِ تظلمان رويداً رويداً كما تظلم كوى بيت هجرهُ سكانهُ . لو مات الانسان وهو في عنفوان قوتهِ لكان الاعتقاد بخلود ذاتهِ اسهل تصديقاً ولكننا نرى عقول الشيوخ تموت قبل اجسادهم

فقال ان الجسد والعقل يموتان معاً واعني بالعقل هنا آلتهُ اي الدماغ ولكن هل الانسان جسدهُ ودماغهُ . أوليس الجسد والدماغ آلتين للنفس فتكلان كما تكل كل الآلات . هذه مسألة قديمة جرى البحث فيها في سجن سقراط (٨) وهو ينتظر شرب كاس السم الذي حكم عليهِ ان يتجرعهُ فقد شبه بعض تلاميذهِ الانسان بعود (الآلة الموسيقية) وحياتهُ العقلية والادبية بالانغام الصادرة من تقراوتارهِ وعليهِ فالنغم يزول بزوال العود . فقال سقراط ان الانسان ليس بالعود ولا بالنغم بل هو العوَّاد الذي ينقر اوتار العود فهو محتاج الى العود واوتارهِ لاصدار الانغام ولكن لا يتعذر عليهِ ان يترك هذا العود وينقر على عود آخر . والذي نشاهدهُ في الشيخوخة هو دنو العود من الفناء لا دنو العواد منهُ

اذا سار الانسان في اتوموبيل مقفل كواهُ من الزجاج توقفت رؤيتهُ الطريق وما حولهُ على نظافة الزجاج فاذا غطاهُ الغبار او الطين تعذرت عليهِ الرؤية ولكن لا يستدل من ذلك على ان الانسان لوح من زجاج ولا على انهُ يعجز عن الخروج من هذا الاتوموبيل ورؤية ما حولهُ

والصعوبة التي نراها في الاعتقاد بان الصدفة اوجدت الكون نراها في الاعتقاد بان ادمغتنا هي التي توجد ما يفيض من نفوسنا . الدماغ مؤلف من خلايا صغيرة والياف دقيقة فهل يحتمل ان هذه الخلايا وهذه الالياف هي التي انشأت روايات شكسبير ونظمت اغاني بيتوفن . وكيف تتمكن كل خلية من الاشتراك مع غيرها من الخلايا وتنظيم اعمالها معها حتى يصدر من مجموعها ما يصدر من مبتدعات العقول

فذواتنا ليست اجسامنا ولا عقولنا . وما اجسامنا وعقولنا سوى آلات لها او هي صقالة تقام ليبنى بها بناء عظيم ومتى تم البناء ازيلت وبقي البناء

ولقائل ان يقول انني لا استطيع ان اتصور الانسان من غير جسم فاجيب

(٨) سقراط الفيلسوف اليوناني المشهور المتوفى سنة ٣٩٩ قبل المسيح

اننا اذا نفينا من الوجود كل ما لا نستطيع تصورهُ لم نستطع ان نجاري العلم الطبيعي . فان رجال العلم يقولون ان في رأس الدبوس عالماً كبيراً فيهِ ملايين من الجواهر وهي تتحرك في مداراتها كالكواكب في افلاكها . وقد اثبت بعضهم ان الانسان لا يستطيع ان يعد الجواهر التي في رأس الدبوس في اقل من مائتين وخمسين الف سنة . فهذا شيء يفوق تصوري ولكنني لا ادعي خطأ العلماء فيهِ لانني لا استطيع تصورهُ . وهذا شأننا في الحياة بعد الموت فان صعوبة تصورها لا تنفي وجودها

ان اكبر الفلاسفة لم يكن يستطيع وهو جنين في بطن امهِ ان يفهم احوال الحياة التي يحياها . كان يعيش بغير هواء يتنفسهُ وطعام يأكلهُ فلا يستطيع ان يتصور كيف نعيش نحن ولا كيف يعيش هو لو خرج من رحم امهِ ولو ادرك انهُ سيخرج من هناك لعُدَّ خروجهُ موتاً

ونحن في معرفتنا الحياة لا نزال مثل اجنة في عقولنا ولم نكتشف من خفايا الكون الا النزر اليسير فلا عجب اذا تعذر علينا ان نتصور في العالم غير المنظور اموراً واحوالاً لم نرها ولم نشعر بها

قال ذلك وصمت هنيهة ثم قال متمهلاً كأنهُ يطأ ارضاً مقدسة

كان لامي تأثير كبير جداً في حياتي فقد كنت احبها احب كل ملامح وجهها وانغام صوتها ولمحات عينيها . ثم انتبهت ذات يوم الى ان ما كنت اراهُ فيها هو ليس ذاتيتها وان صفاتها الحقيقية هي ما فيها من حب وعطف ورحمة وفكر وهذه الصفات ليست مما يرى بالعين . وهذا شأن كلٍّ منا فان صفاتنا الحقيقية ومقوماتنا الذاتية ليست مما يرى بالعين

وخلاصة القال ان العالم لا يخلو ان يكون واحداً من شيئين اما انهُ سخافة لا معنى لها ولا غرض منها نهايتهُ الخراب والاضمحلال او ان لهُ الهاً خلقهُ وهو يرقب اعمالهُ ويدبر امورهُ . وقد اوجد فيهِ ذاتيات خالدة . فاختر ما شئت من هذين الفرضين